

في الطريق الى نظام عالمي جديد

امن التجارة . . . وتجارة الامن

محمود عوض *

تضربهم بقوة في العالم الثالث (ليبيا مرة اخرى، او بنما جديدة، او غرينادا اخرى) يعني بولة من الصغر بحيث تضمن لراعي البقر الاميركي عملية تاييبية مضمونة، وفي الوقت نفسه من التأثير بما يجعل الدرس مسموعا في محيط بأسره من العلاقات الاقليمية.

ثم اضاف آخرون اجتهادهم فوق اجتهاد، فما دامت حال التعبئة تقتضي شعارات مختصرة وعامة وبسيطة من نوع «امبراطورية الشر» فحينئذ يصبح شعار الحرب البينية اكثر سهولة: الغرب ضد الاسلام مثلا، لكن عيب مثل هذا الشعار انه

كلها في كلمة واحدة هي «الاحتواء»، فاذا استطاعت الولايات المتحدة ان تقود حلفاءها في عملية «احتواء» كبرى وعالمية لمنع انتشار الشيوعية، فان للشيوعية ستنهار في نهاية المطاف من دون قتال ولا حرب، وطوال ٤٥ سنة ظل هذا هو فعلا عنوان برنامج العمل الاميركي حول العالم، بحيث ان الشيوعية انهارت اخيرا من دون طلقة رصاص واحدة.

والآن بعد انتهاء الحرب الباردة، يواجه العقل السياسي الاميركي مازقه الكبير: الى اين؟ في الحرب الباردة كان العدو محددا وواضحا، وهوان وسياسات الاحتواء متاحة وناجحة والاصقاء والخصوم يتم فرزهم بناء على قبولهم او رفضهم المشاركة في سياسة «الاحتواء» تلك. الآن، في سنة ١٩٩٢: من هو العدو؟ وما هو دليل العمل؟

في البداية طرح العقل السياسي الاميركي ثلاث قضايا محددة لتكون محورا للسياسات الاميركية في مرحلة التحول الجارية عالميا بعد الانهيار السوفيياتي، الاولى هي التعامل مع التفكك الكبير في ما كان اتحادا سوفيياتيا، وبكلمات اخرى الكيفية التي يتم بها ضمان عدم عودة تلك الدولة الموحدة التي كان اسمها الاتحاد السوفيياتي الى الوجود كقوة مؤثرة على المسرح الدولي والثانية هي منع انتشار التكنولوجيا النووية والصواريخ ذاتية الدفع الى دول العالم الثالث، والثالثة هي فتح كبير قدر من اسواق دول العالم الثالث امام الاقتصاد الاميركي.

ومن بين تلك القضايا الثلاث، التي تبدو غير مترابطة للوهلة الاولى، فاننا موجودون في الثنتين منها على الاقل، سواء كعالم عربي، او كجزء من العالم الثالث، ووجه الخطورة هنا يكمن في ان البحث عن عدو جديد لاستمرار حال التعبئة الاميركية يمكن ان ينتهي بعملية «تلفيق» عدو، مجرد شفاء الغل او لانه يحكم القوي على الضعيف، ونائب الرئيس الاميركي دان كويل حينما دافع اخيرا عن لعممة الاستمرار في تمويل ابحاث واسلحة «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» - التي كان عدوها في الاصل هو الاتحاد السوفيياتي - فانه لم يعد ينكر موسكو، وبدلا من ذلك قال ان وجود نظام صاروخي للدفاع في الفضاء هو امر ضروري لحماية الدول «الملتزمة بالقانون» ضد اولئك «الخارجين عن القانون» وقطاع الطرق وممارسي الابتزاز «مثل العراق وكوريا الشمالية».

بعد قليل لجئنا آخرون ليجعلوا قائمة «الاعداء الجدد» اكثر تحديدا وشمولا وتوضيحا، حيث على الولايات المتحدة ان تختار بعناية هؤلاء الاعداء الجدد، ولكن

اندمجت الولايات المتحدة في سياسات الحرب الباردة منذ سنة ١٩٤٧ الى درجة المفارقة الكبرى، ففي لحظة الهزيمة الكبرى للخصم، بل وانهيائه بالكامل، لم تكن نشوة الانتصار في العقل السياسي الاميركي كاملة ولا نهائية، لقد بذلت الحرب الباردة في كل ما هو اميركي من قلاع، من الاعلام، الى الروايات، الى برامج التلفزيون، الى مقررات التعليم، الى ٣٧٥ قاعدة عسكرية ونصف مليون جندي حول العالم الى ١٦ بليون دولار ممولات سنوية لدول محددة لها لعمية خاصة في مسار الحرب الباردة، الى صناعة سلاح تتبع لدول العالم لربعين في لفة من النخيرة وتعطيها معدات عسكرية بمئة بليون دولار، الى مئة الف قتيل في حربين معلنتين - في كوريا وفيتنام - فضلا عن حروب اخرى بالوكالة او في الظل.

خاضت الولايات المتحدة الحرب الباردة بعملية تعبئة غير مسبوبة لنفسها ولحلفائها، وبمنطق «الاخيار ضد الشر» ولكن في لحظة الهزيمة الكبرى للخصم الرئيسي - الذي سمى «روند ريغان» امبراطورية الشر» لم تجد الولايات المتحدة تحت يدها ما يكفي من «الخيرة» لكي تمارس الدور القيادي نفسه في مرحلة بعد الحرب الباردة. وفي سلسلة اخطيرة من اللقائات الاميركية قال احد الكتاب: «لقد انجزنا تماما، كنا نركز بطريقة لعبنة على روسيا بحيث اننا لم نواجهه مطلقا الواقع الاقتصادي المتغير من حولنا والنموذج البسيط لذلك هو رائدوات الترفيزستور ولجهزة التلفزيون الملون ومسجلات الفيديو كاسيت ورقائق الكمبيوتر، كل ذلك هي في الاصل مبتكرات اميركية، لكن الالمانيين هم الذين انتجوها على نطاق واسع وجعلوها من كثر السلع شعبية حول العالم، بل انه حتى في صناعة السيارات، التي كانت الولايات المتحدة تعتبرها دائما رمزا لقوتها وعافيتها الاقتصادية، اصبح اليابانيون يهيمنون في السوق الاميركية تكتفا بما جعلت هذه السوق من نصيبها، ولو لم تكن هناك «قيود اختيارية» ارتضتها اليابان لنفسها لازلت حصتها من السوق الاميركية عن هذا بكثير.

وفي بداية الحرب الباردة وجد العقل السياسي الاميركي من يعطيه دليلا بسيطا للحرك والعمل، فحينما نشر جورج كينان في تموز (يوليو) ١٩٤٧ مقالة شهيرة بتوقع مستعارة لخص استراتيجي اميركا

المشكلة هي ان اصحاب شعار «اميركا اولا» في الحملة الانتخابية الاميركية الجارية لا يريدون مواجهة المواطن الاميركي بما لا يجب ان يسمعه، والشعار بالمعنى المطروح فيه الكثير من المداينة لانه يجعل العالم كله مسؤولا عن ازمة اميركا لاقتصاديه.

لن يشير مطلقا خيال المواطن الاميركي، فالراي العام الاميركي - تاريخيا - لم يتحمس بالمرة لاية حروب دينية، فضلا عن ان الحديث هنا عن اسلام واحد لا يوجد له اساس عملي. ان ايران وتركيا واندونيسيا وكازاخستان ونيجيريا وبيروني وباكستان وتونس وعمان كلها دول مسلمة، لكن هل تقف كلها على مسافة واحدة من الغرب، وهل لديها جميعا نفس اللوادر الطبيعية التي يريدها الاقتصاد الاميركي؟ ثم ان معظم التكنولوجيا النووية - التي اصبحت السياسة الاميركية الجعيرة تريد منعها -

موجود خارج العالم الإسلامي وليس في بلخه، وباستثناء باكستان - التي تملك الامكانيات ولكن ليس السلاح النووي - فان السياسة الاميركية سوف تجد نفسها هنا في مواجهة جنوب افريقيا واسرائيل وتايوان والصين والهند والارجنتين والبرازيل وكوريا الشمالية. باكثر مما ستجد نفسها في مواجهة دول اسلامية. وحينما جربت السياسة الاميركية الفتحال خطر وهمي من معمل ابحاث تعليمي نووي في الجزائر، او مفاعل صغير عاجز في ايران لم تجد احدا يصدقها، حتى من بين الحلفاء.

مرة اخرى: اين العدو؟ او بكلمات اكثر وضوحا: اين يمكن «تفنيق» العدو؟ لقد وجدت الولايات المتحدة شعاعا ترفعه لنفسها بعد الحرب العالمية الاولى وهو الدفاع عن الديمقراطية، ووجدت لنفسها شعاعا آخر بعد الحرب العالمية الثانية وهو احتواء الشيوعية، الآن ما هو الشعاع؟ خصوصا ان الولايات المتحدة لم تعد هي اليوم القوة نفسها او النموذج الذي كانت عليه قبل ٤٥ سنة.

وحتى في حدود الحديث عن الليبرالية والاقتصاد السوق والحرية والفتوح الخاص والنظام الرأسمالي، فان رأسمالية اليابان مثلا، وكذلك ألمانيا، تبدو اكثر وعيا ومسؤولية وكفاءة وانجازا من راسه.

ولمي البقر الاميركي، بل حتى دو -وب شرقي آسيا نفسها (كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة) حينما لارلت انجاز نهضة اقتصادية سريعة وجدت نفسها القرب الى النموذج الياباني منها الى النموذج الاميركي في التنمية.

واذا رفعت السياسة الاميركية الجديدة شعار «اميركا اولاً» المطروح الآن في سياق حملة انتخابات الرئاسة الاميركية فان هذا قد يشير الى ٤٣ بليون دولار قللها تجاريا سنويا تحلقه اليابان مع الولايات المتحدة لكنه لا يشير في اللحظة نفسها الى تسعة بلايين دولار تستثمرها اليابان في صناعة السيارات داخل الولايات المتحدة، ولا الى منتجات زراعية وصناعية اميركية تستوردها اليابان بخمسين بليون دولار في السنة، ولا الى ٨٤ بليون دولار تستثمرها اليابان بشكل مباشر في شركات ومؤسسات اميركية.

والمشكلة هي ان اصحاب شعار «اميركا اولاً» في الحملة الانتخابية الاميركية الجارية لا يريدون مواجهة المواطن الاميركي بما لا يجب ان يسمعه، فللشعوب تحب انجنانا من يدهنها وينالها، وشعار «اميركا اولاً» بالمعنى المطروح حاليا فيه الكثير من الداهنة لانه يجعل العالم كله مسؤولا عن

ازمة اميركا الاقتصادية، الا اميركا ذاتها، انه يحجب عن المواطن الاميركي حقيقة انه عاش طوال الثمانينات في ظل رخاء مستعار، تموله قروض من الخارج بفوائد وصلت احيانا الى 18 في المئة و19 في المئة واصبح سلفها معلقا في رقبة جيل اميركي قادم، هذا يعني باختصار ان اميركا اصبحت تستهلك اكثر مما تنتج.

وحتى الآن لا يبدو ان العلاجات المطروحة جادة ولا جذرية بما فيه الكفاية فمهاجرة الثنائي جورج بوش - جيمس بيكر تستطيع ان تضمن مثلا ثلاثين بليون دولار فائضا صافيا في سياق لزمة الخليج، لكن هذا لم يكف لنعاش الاقتصاد الاميركي باكثر من ثلاثة اشهر، كذلك قد يرفع الساسة الاميركيون الآن شعار «الديبلوماسية متعددة الاطراف» ويقصدون بذلك ان اميركا ستدير العالم بمزيج من العضلات الاميركية والاموال من اليابانيين والمكسيك وغيرهم من الدول وخاتم التسرعية الدولية من الأمم المتحدة، وهنا ايضا نجد انها صيغة ملفقة وغير جادة فحتى الآن لا يوجد لليابان ولا ألمانيا مقعد دائم في مجلس الأمن، كما انه من بين 800 مليون دولار مستحقات متأخرة في موازنة الأمم المتحدة، فان الولايات المتحدة هي المدين الأكبر للمنظمة الدولية التي تريد الولايات المتحدة خاتمها الآن في جيبها.

هكذا لن ينتهي بنا الحديث في كل شيء الى الاقتصاد، لقد جاءت نتيجة الانتخابات الاولى في ولاية اميركية صغيرة لكي تكشف مدى سيطرة البعد الاقتصادي على العقل السياسي الاميركي، فمرشح الحزب الديموقراطي الاول هو الذي يقول: من دعوتي الأساسية للمواطن الاميركي هي الا يشتري الا كل ما هو اميركي، والمرشح الثاني للحزب الجمهوري هو الذي يرفع شعار «اميركا أولا» اما المرشح الاول للحزب الجمهوري - الذي هو جورج بوش نفسه - فهدد حلفاءه الغربيين بأنه سيواجه بكل قوة ذلك «الاستر الحنيني الجديد» من إجراءات الحماية الجمركية الذي تحيط به نفسها تحت عنوان حماية انتاجها الزراعي والصناعي.

هل هي راحة نساء في طريقها الى ان تسيل؟ ربما نعم، وربما لا، لكن اخشى ما نخشاه على الاقل من الآن حتى تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل، هو ان يكون كيش الفداء في هذا كله موجودا جنوبا، بنما اخرى؟ غرينادا اخرى؟ يجوز لكنها في هذه المرة ستكون القرب البينا بكثير... القرب تماما.

• نائب رئيس تحرير «اخبار اليوم» القاهرية